

مقدمة للصمت



عبد القادر الحصني

لا بدَّ من شجرٍ كثيفٍ في الظلامِ

ليكونَ بيتٌ في البعيدِ

سراجهُ كفُّ من الحناءِ

تخفقُ خلفَ نافذةٍ ،

تشرَّد في مداراتِ الأساورِ

ما تراكم من تفاصيلِ النهارِ

إلى المدامِ

لا بدَّ من شجرٍ كثيفٍ في الظلامِ

ليغيبَ أمشاطَ من الألماسِ

في شعرِ القصيدةِ،

أو عروقٍ من حياءِ الوردِ

في طفلِ الرخامِ.

لا بدَّ من شجرٍ كثيفٍ:

أنتَ لا تتذكَّر الأشياءَ مثلَ النايِ

لا تمضي إلى القبلاتِ محترقِ الشفاهِ

ولا تموتَ بقربِ نفسكِ

لا تعيشَ بقربِ من تهوى،

إذا دنتَ الخيامِ من الخيامِ.

لا بدَّ من شجرٍ كثيفٍ يعتريكِ،

لتعبرَ الرؤيا، وتقرأ مفرداتِ الحلمِ

في الصورِ النساءِ الغائباتِ..

رنين أجراس الكنائس في البنفسج،

واختلاط مشاعر العطار حول الوقت

أسلمه خريف من نحاس الزيزفون

إلى السقام

لا بد من شجر كثيف في الظلام

ليظل شيء من بهاء الصمت مبهوتا

على طرف الكلام.

أنا لا أسمى كل شيء باسمه إلا قليلا

والحاضرون بقول ما ينقال،

سوف أبثهم فحوى ضلالي في الوجود،

ولأنني أعددت لي ولهم

وللآتين أيضا، بعدنا،

تيها جميلا

حتى القصائد سوف أقنعها

بأن لها من الغابات ما ينأى

وأدفعها إليه

حتى إذا وجدت سرايا،

لم تجد أحدا لديه

وجدت صداها وردة زرقاء،

عرتها الرياح،

وبعثرتها في البداد.

هذي بقايا عريها في الريح:

أزرقها تماهى، ثم شف،

وحال نحو الأبيض الفضي،

أو هذا رمادي.

أنا لا أسمى كل شيء باسمه

فله الأسامي

وله الحدودُ الراسخاتُ

له فواصلهُ،

فلا يلج الحلالُ على الحرامِ

الحمدُ للأرضِ الجميلةِ؛

مغزلُ الزمنِ الجميلِ

أناطِ عاداتِ الشواطئِ والنساءِ

بدورةِ القمرِ الملونِ،

واستفاضَ على الحقائقِ

بالشقائقِ من دمي،

ثم استدار،

فكوّرتِ كفاهُ قِبَتَهُ البهيةَ

فوقِ شيءٍ من حطامي.

الحمدُ للأرضِ الجميلةِ * إنَّ نوحاً كان في همٍّ *

وأزواجاً من الحيوانِ في مللٍ * وغيضِ الماءِ *

واستوتِ السفينةُ فوقِ جرفٍ * بينما طميّ لذيذٌ في

شقوقِ الأرضِ باشرهُ خفيفٌ من نثارِ الشمسِ *

أخذ للتنفسِ في هدوءٍ

— " اهبطوا منها "

— هبطنا .

إنَّ نوحاً كان في شغلٍ * يسبحُ ربَّهُ *

أخذ الحبورُ حمامةً هدلتِ

وثوراً خاراً ،

نقَّتْ ضفدعٌ

صاح ديكٌ،

واستفاضَ الآخرونَ، فما تميّزُ،

إنهم فرحون..

— " نوحٌ أيها النجارُ: ما هذا القطيع من الضجيج؟"

أنت تهزول من غيابة كوخها،

في السفح سيدة عجوزٌ.

— " كنتُ نائمةٌ و أولادي،

فأيقظنا قطيعُك،

والمؤونة بلها مطرٌ خفيفٌ،

لو تثوبُ إلى رشادك،

إن رهطك مزعجون، وأنت من لدَّ الخطام"

اغتمَّ نوحٌ : أين كانت هذه الشمطاء؟

كيف نَجتَ من الطوفانِ؟

ما معنى النبوةِ

والنجارةِ

والملاحةِ

واشتعالُ الشيب في ريشِ الغرابِ وفي عظامي؟

اغتمَّ نوحٌ، بينما كانت شقوقُ الأرض رِيًّا،

والسماءُ تفلجُ الشفتين

عن طيفِ ابتسام

والله ... حتى الله غَطَّت وجههُ طُلُّ الغمام

ورأى بأنْ لا بدَّ من شجرٍ كثيفٍ في الظلام